الميتافيزيقا والسرد
تفرد الذات وتعددها

روم هاريه

مقدمة

يمكننا أن نحدد الكائنات البشرية ونميزهم بالإشارة إلى معايير جسدية من قبيل الطول والوزن والملامح. إننا نستخدم هذه المعايير حتى مع المصريين المحنطين، بدراسة عظامهم بحثا عن علامات مميزة، ربما لمرض، ونستخدمها أيضا للتعرف على الجثث الغامضة بسجلات الأسنان. لكن ماذا عن الأشخاص؟

إذا اعتبرنا فهم الذات وصفا تقريبيا لما يلزم لتكملة الانتماء إلى جنس الإنسان العاقل hom o sapiens sapiens، لنعرِّف «معنى أن تكون إنسانا» فسوف نواجه بعض الأسئلة الصعبة.

كيف يأتى إلى الوجود هذا الكائن؟ كيف ثبت فى الوجود أو تضاءل؟ ما مبادئه الخاصة بالهوية والتفرد؟ لا يمكن أن يكون الأمر جسديا تماما حيث إن قدرتنا على أن نميز هيكلا عظميا من العصر الحجرى الحديث عن آخر لا تعنى أننا نستطيع أن نميز شخصا من ذلك العصر عن شخص آخر. من الواضح، كما برهن الفلاسفة لوقت طويل، لا شىء يثير النزاع بقدر ما تثيره التفاصيل، لأن كونك هذا الشخص أو ذاك لا يتماثل مع كونك صاحب هذا الجسد أو ذاك.

ويقدم علم النفس الاستطرادى أطروحته المتعلقة بهذه الأسئلة الصعبة على النحو التالى:

للإحساس بالذات أصل فى ممارسات سردية معينة فيها يعامل طفل رضيع بوصفه شخصا وليدا. ويستمر أو يتقوض بالتخلى عن هذه الممارسات.

إن سرديات الذات معقدة. القواعد التى تعالج بها مجموعة من المفاهيم حول الشخصية و «الذات» تحتاج إلى الفصل فى عدة جدائل متضافرة. على سبيل المثال، نفهم فى ظل مفهوم تعدد الدلالة أكثر مما نفهم من فهم المرء للهوية الشخصية.

يبدأ بحثى بفحص موجز لمجال المفاهيم التى يحملها الاستخدام الحالى لكلمة "شخص" وكلمة "ذات". لا أدعى أن هذا كتالوج شامل ، لكنه كافٍ لنبدأ.

النموذج المعيارى

مقدمة

هناك عدة تعبيرات مستخدمة بالنسبة للإطار الميتافيزيقى الأساسى، بها نبنى خطابات حول حياة الإنسان. باستخدام الإنجليزية لغة مرجعية لنا هناك كلمة «شخص person» وكلمة "ذات self"، تلعبان دورا رئيسيا فى الكثير من السرديات المصيرية. من بين الاثنتين، تبدو "شخص" أكثر ثباتا وذات معنى واحد فى الاستخدام اليومى، ملتقطة كائناتنا البشرية بقدر ما تكون نشطة معرفيا ومَصونة خلقيا. لكن "الذات"، من الناحية الأخرى، لها مجموعة واسعة من الاستخدامات المختلفة. فى هذا البحث، أتناول ثلاثا من أكثرها شيوعا. يبدو لى أن المتحدثين بالإنجليزية فى زمننا يتعاملون مع نموذج معيارى، فيه تعمل كلمة "شخص" بوصفها كلمة تعبر عن الخصائص الأساسية لعالم الإنسان، لكل منها أو يبدو أن لكل منها صفات ومكونات يشار لها بالكلمة متعددة المعانى "ذات". أعبِّر عن النموذج المعيارى فى صيغة بسيطة:

ش {ذ١، ذ٢، ذ٣} P{S1,S2,S3}[1]

Ps هى الخصائص الأساسية، Ss، رغم أنها تبدو مثل الكينونة، إلا إنها، كما أرى، صفات سريعة الزوال لتدفق أنشطة P، وخاصة تلك التى ترتبط بها P ماديا واجتماعيا بالكائنات الأخرى.

الذوات فى النموذج المعيارى

تبدو كلمة «ذات» (وأحد مرادفاتها الطنانة، «الأنا ego») فى الخطابات المتمركزة حول الشخص فى ثلاثة سياقات سيكولوجية مختلفة على الأقل: الإدراك، والتأمل، والتفاعل الاجتماعى.

١- الذات ١: تستخدم فى سياق الإدراك، للدلالة على فردية رأى مجسد، يظهر فى بنية مجالات الإدراك، وكل منها متمركز فى موضع فى فضاء المُدرِك المجسَّد. فى الإدراك، يقيم P، الشخص، علاقة ما مع بيئته المادية، بما فى ذلك أجزاء جسمه. ويبدو أن النقطة المركزية للإدراك والإحساس بالحركة والاتجاه توجد داخل الجسم. ماذا هناك؟ ربما ذلك الذى يدرك حقا، وظيفة من وظائف الأنا الديكارتية(٢). طبقا لتفسيرى، الذات ١ قطب فى نظام ثنائى القطب للأشياء المادية، لكنه تجريد جغرافى، يشبه إلى حد ما القطب الشمالى بالنسبة للقارات. يدرك الأشخاص فقط. فى حكى قصص المواجهة مع البيئة المادية تلعب الذات ١ الدور الرئيسى.

٢- الذات ٢: تُستخدَم فى سياق التأمل فى الذات بوصفها شخصا، بما فى ذلك تأملات السيرة الذاتية، للدلالة على مجموع صفات P، بما فى ذلك معتقدات P بشأن هذه الصفات. وتشمل الأخيرة التصور الذاتى له، وقد يعكس أو لا يعكس، بشكل صحيح الصفات الحقيقية له فى لحظة من لحظات الحياة. الذات ٢ شبكة معقدة من صفات مختلفة جدا، بعضها عرَضى، مثل الصور الذهنية، والمشاعر، والديالوجات الخاصة، لكن معظمها منظم، مثل المهارات والقدرات والقوَى.

٣- الذات ٣: تُستخدَم فى سياق التفاعل الاجتماعى، للإشارة إلى الطريقة التى تظهر بها سمات معينة للذات ٢ الحقيقية أو المنسوبة ذاتيا لشخص من قبل الآخرين فى مسار حدث حياتى ما. وتبرز هذه السمة الشخصية فى سرديات السيرة الذاتية.

وهناك استخدامات أخرى لكلمة "ذات"؛ على سبيل المثال، تستخدم أحيانا مرادفا لكلمة "شخص". لكن بهدف وضع إطار بسيط وواضح للبدء فى مهمة حل لغز الخُصَلة المتشابكة لميتافيزيقيات الشخصية، وأقصر استخداماتى للكلمة على تلك التى حددتها بوصفها الذات ١ والذات ٢ والذات ٣.

شروط النموذج المعيارى

١. التنوع والتعدد

أعنى **بالتنوع** تناول الأشكال المختلفة فى المواقف الثقافية المختلفة؛ وأعنى **بالتعددية** ما له أكثر من إدراك واحد بالنسبة لأى شخص معين.

أ. تُعرَض الذات ١ عموما موضعا فريدا متحرِّرا من السياق، وتنسب دائما إلى مكان الجسم فى الفضاء ومعاصرة بشدة. وهكذا يوجد مكان ضئيل للتنوع. ومع ذلك، هناك مواضع اجتماعية (على سبيل المثال، نوعية تصوف كارلوس كاستانيدا)(٣) قد

يزعم المرء فيها أن هناك أكثر من منظور للإدراك. لكن من المهم أن الجسم فى سردياتها يترك خارج خبرات الجسم. وتفرض القاعدة المكملة، «شخص واحد لكل جسم»، عموما، بمعالجة مزاعم بإشغال متعدد كشكل مَرَضى، على سبيل المثال، فى تشخيص هـذه المزاعم بوصفه العلامة المميزة لاضطراب تعدد الشخصية. لا نقول إن «بل Bill» الشخص الوحيد فى هذا الجسم، لكن مارى وجوان وإليزابيث كلهم فى ذلك الجسم أيضا. والموقف الأخير هو الصراخ من أجل الشفاء.

ب. الذات ٢ فردية عموما، بوصفها كلية فريدة للصفات حقا، تستبعد حتى التجسيد الفردى. لا أعرف قبيلة تزعم أن لها أكثر من "ذات" واحدة بهذا المعنى، فى أية لحظة. لكن هناك تعددية، حيث إن الذات ٢ تتغير باستمرار، ناهيك عن أن المعرفة، رغم أن المهارات والقوَى ربما تصبح مستقرة، تقوى دائما، على سبيل المثال، بتذكر أحداث الحياة. لا تتدهور المعرفة إلا فى الحالات المرضية. هذه ملاحظة أساسية حيث إن أمراض الشخصية تُعرَّف جزئيا بفقد القوَى وفشل الذاكرة.

السيرة الذاتية جزء مهم من "سرد" الذات ٢، ويعتمد الأمر بشكل كبير على السياق. لكل شخص ذخيرة من السير الذاتية مناسبة لمواضع ثقافية مختلفة، ومعظم الناس مهرة فى بناء سير ذاتية جديدة لمناسبات جديدة. وهذا يفتح التباين بين ما يعتقده المرء عن نفسه (المفهوم الذاتى) وحقيقة نفسه، بما فى ذلك تلك المعتقدات. إنها تتغير، وهكذا تكون الذات ٢ غير مستقرة بشكل متأصل.

جـ. الذات ٣، الطريقة التى يقدم بها الناس أنفسهم للآخرين، متعددة عموما. وهناك دراسات كثيرة عن قابلية تغير الشخصية المطروحة للفرد من مناسبة إلى مناسبة، ومن سياق إلى سياق. إلى أى حد يبدو المرء للآخرين، وأى نوع من الأشخاص يبدو، تحت سيطرة المرء، وبقدر استنباط هذا الحد، يتحدث علماء النفس عن "معالجة الانطباع".

٢- نوع أم خاص؟

إذا كان كل إنسان كائنا فريدا فإننا نتوقع تفوق الخصوصية على العمومية فى محتوى الذوات ١، ٢، ٣. ومن الواضح أن الذات١ لا بد أن تكون خاصة؛ لأنها تتعلق بفردية فى فضاء وزمان. وينبغى أن تتكون الذات ٢ من صفات يمكن التعرف عليها، واقعة تحت الأنواع، رغم تفردها بدرجة ما فى بعض الحالات وفى الأداء الكلى فى كل الحالات. لكن فى حالة الذات ٣، يتضافر تفرد مظهر الجسد مع عروض تعتمد على

الذخيرة الدرامية للأنواع. وثمة تعبيرات عامة يتعذر تصنيفها تتعلق بمخاطر اتهامات الذات بالشذوذ فى أفضل الأحوال، وبالجنون فى أسوأها.

٣- المعايير

بقدر ما عرضْتُ تحليل النموذج المعيارى P{S1, S2, S3}، ربما تبدو بنية المفاهيم الثلاثة "للذات" مثل ملخص لملاحظات إمبريقية لحقيقة عالم الإنسان. لكننا احتجنا فى كل حالة إلى الإشارة إلى دور المعايير المحلية، وأعراف اللياقة، وحدود سلامة العقل، إلخ، التى تلعب دورا فى محتوى الذاتية وديناميكياتها كما تتجلى فى تقارير رحلات الصيد، والشكاوى للأطباء، وتبادل السير الذاتية فى إرساء علاقة جديدة.

أقترحُ العمل مع الأطروحة العامة بأن، تبقى على حالها رغم كل شىء، فردية (تفرد) أشخاص (باستثناء تميز أجسامهم ماديا) ليست حقيقة وحشية عن حياة الإنسان، لكنها نتيجة لمعايير مفروضة محليًا. على سبيل المثال، لماذا يعتبر محبو مس بييتشامب وإيف وايت(٤)، وهم يتمتعون بشخصيات متميزة جدا حتى تعتقد أن فى كل جسم أكثر من شخص، فى حاجة إلى شفاء؟ تتطلب معايير عالمنا أن يكون هناك شخص فى كل جسد، لا أكثر ولا أقل. الاتساق فى عروض الشخصية، التماسك عبر المواقف فى حكى السير الذاتية، إلخ، ليست أمورا حقيقية بشأن طريقة تصريف البشر لأمور حيواتهم، لكنها ظلال للمعايير المحلية. تلعب السيرة الذاتية دورا حيويا مهما فى تذكيرنا باحتمال التنوع بمعنى أن ما نميل إلى اعتباره فرديا بالضرورة، ربما تعالجه قبائل أخرى بسعادة بوصفه تعدُّدا.

أنطولوجيا «الذوات»

يبدو أن الإشارة إلى ذات ليست إشكالية، حيث لا شىء يتحدث أو يعمل إلا شخص يبدو أنه فى مسرحية. لكن المنظور الذى يدرك منه المرء العالم مجسد بسهولة فى كائن داخلى مدرك، يوجد فى أصل النظام المشيد للأشياء، بما فى ذلك جسد المُدرِك. وهذا على الأقل أحد المفاهيم المجسدة فى الأنا الديكارتية التى تمسك بكل شىء. وهناك ميل إلى الاعتقاد بأن الخصائص الشخصية أيضا، مثل «الذات»، كينونة، «من أنا؟» فى بعض سيكولوجيا البوب pop. أخيرا، تبدأ ذاتى كائنا اجتماعيا، الذات ٣، تواجه هواء مجردا. ويمكن أن أوضح هذا ببساطة بإشارات إلى كتاب مشهورين بدرجات متفاوتة.

يرى كوت Kohut (١٩٧٧)، على سبيل المثال، أن "الذات" ليست "قوة للعقل"، لكنها "بنية للعقل". وزعم أندرسون Anderson وشوينيج Schoenig (١٩٩٦) أن "الهوية منعزلة" بشرط وجود "وحدة، تماسك يمتد عبر الزمان والمكان". من هذا

المنظور، هذه الوحدة هى "جوهر الفرد" وهى بمثابة لب لكل التجليات الخاصة. مرة أخرى طبقا لرأى لأندرسون وشوينيج (١٩٩٦) "الهوية المنبسطة" كوكبة من الخصائص والأداء "تتجلى فيها الذات [أى الذات ٢] فى فعل له معنى".

تتورط الذات ١ والذات ٢ أيضا فى فكرة جريتز Greetz عن الشخصية. يرى جريتز (١٩٧٣، ص ٩)، أن الذات عالم تحفيزى ومعرفى مقيد وفريد ومتكامل تقريبا [الذات ٢]، ومركز ديناميكى للإدراك [الذات ١]، وعاطفة وحكم وفعل، منظمة فى كلٍّ مميز [الذات ٣] وتوضع بشكل متباين مقابل كل الكليات الأخرى وعلى خلفية اجتماعية وطبيعية.

كيف يتأتى هذا؟ جادلْتُ لوقت طويل (على سبيل المثال، Mühlhäuster & Harré, 1990؛ Harré, 1998) بأن مصدرا للميل لتجسيد الذوات يأتى من إساءة فهم نحو الكلمة يشير على ما يبدو إلى الكائن السيكولوجى المناسب، أقصد "أنا I". على سبيل المثال، "أنا أرى وأسمع الأشياء من حيث أنا"؛ أو "الاقتراب من ذاتى يكشف «حقيقتى»". وقد فُسِّرت "أنا I" باعتبارها اسما مبهما، لكن الانتباه إلى التفاصيل يوضح أنها لا تلعب دورا اسميا على الإطلاق. إنها إشارية، أى تشير إلى لفظ لحقيقة ما عن المتحدث واللفظ، كم ينبغى أن يؤخذ محتوى اللفظ على أنه يشمل الوضع المكانى للمتحدث؟

الذوات خارج "الأنواع" الثلاثة كينونات، رغم أننا نستخدم الكلمة بطرق مجردة متنوعة. ربما تكون الذوات خصائص، خصائص للأشخاص؟ لكن ذلك لا يصح أيضا، لأن الذات ١ خاصية لنظام لأشياء مادية. ويبدو أن الذات ٢ مجموعة خصائص من أنواع مختلفة، تشمل الميول والقوَى. حين ننتج تيارات من الفعل فى ممارسة هذه القوَى، ولهذه التدفقات خصائص نعتبر الكثير منها ظواهر سيكولوجية، على سبيل المثال القرارات والمعتقدات والذكريات. ومن السهل أن ننزلق فى نسبتها لشخص منهمك بنشاط فى إنتاجها، وكأن هذا الإنتاج لا يتكون إلا من جلب ما كان من قبل خاصا وخفيا ربما حتى عن الفاعل نفسه إلى الأضواء العامة.

حين ننسب صفات سيكولوجية لشخص ربما لا نستدعى **إلا طريقة التحدث،** مدفوعين بالحاجة إلى أن نعزو مسئولية لأعمال بين أشخاص متورطين فى حدث. ربما توضح نظرة أقرب أن الكثير مما يبدو صفات شخصية لا يمثل خصائص الشخص على الإطلاق. الذكريات، على سبيل المثال، لا يمتلكها شخص ما لكن ينتجها ذلك الشخص، طبقا لمتطلبات الموقف. يمكن أن تضللنا الطرق الشائعة فى التحدث. نقول إن شخصا لديه ذكرى، ونقول أيضا إن شخصا يتذكر. يوحى التعبير الأول بالامتلاك

بينما يوحى الثانى بالفعل. ربما يبدو الاختلاف بسيطا، لكنه يحمل حملا ميتافيزيقيا ثقيلا. فى صيغة الاسم تبدو الذكريات كيانات، بينما فى صيغة الفعل يبدو التذكر فعلا. يمكن قول الشىء نفسه عن أن المرء له رأى، مقابل التعبير عن رأى أو تكوين رأى، وأن تكون له قرارات أو يتخذ قرارات، إلخ.

ليست الذات ١ أو الذات ٣ كيانين. إنهما صفتان لتدفق تفاعلات شخص مع البيئة المادية فى الإدراك، بما فى ذلك جسم الشخص نفسه بوصفه جزءا من البيئة، ومع البيئة الاجتماعية فى التفاعلات الاجتماعية. الإدراك خيط عام فى الاثنتين، حيث إنه ينبغى أن يرى ويسمع المتفاعلون اجتماعيا مع المرء كيف يبدو المرء وماذا ينبغى أن يقول، وربما، أحيانا، مشاهدة ما يشعر به.

تتطلب تعليقات أخرى على الذات ٢ التمييز الحيوى والجوهرى بين القوَى والقدرات، الميول التى تجعلها ممكنة والحالة والأحداث المصاحبة التى تجلبها ممارستها إلى الوجود. يرتكز التمييز الثلاثى على انقسامين إضافيين جوهريين. تمييز بين ما يحدث والممكن، للتمييز بين محتوى القوَى والميول وما يحدث بالفعل. يتطلب المفهومان السابقان تعبيرات شرطية، مع قوة تقديم الكفاءات الشرطية، حيث يمكن أن توجد القوَى دون أن تمارس والميول دون أن تتحقق. وهكذا نحتاج إلى التمييز بين ما يمكن ملاحظته وما لا يمكن ملاحظته لنميز القوَى من الميول. يمكن لميل، وليكن «الجبن»، أن يعبر عنه فى الصيغة «إذا شك P فسيكون P خائفا". الشك والخوف حالتان ملحوظتان لشخص، ناهيك عن الشخص نفسه. وهكذا تكون الميول شكلا من الأشكال التى تتخذها الأمور المعقدة التى يمكن ملاحظتها. وتشمل الأخرى روابط من قبيل "و"، و«أو»، و «ليسا». ومع ذلك، يمكن أن نسأل عن شخص يشرح ميول الجبن لدى لاعبى تنس، أو مهاراتهم، أو حتى قدراتهم. وتستدعى مثل هذه التفسيرات القوى والقدرات والمهارات، وما شابه. وتشير هذه المصطلحات إلى أمور لا يمكن ملاحظتها، لا تعرض قط بهذه الصورة، رغم أنها تتجلى فى الأداء، ومنه يستنبط المرء تأكيدات عن الميول. يعرض المرء مهارته فى حل مشكلة فى الشطرنج، لكن ما يمكن ملاحظته هو المشكلة والتوصل إلى حلها، وليس المهارة التى وراء ذلك. ينبغى أن يتكون جزء كبير من الذات ٢، حقيقة شخص، من قوَى وقدرات. وينبغى أيضا تضمين معتقدات المرء بشأن قواه، ومسئولياته، وقدراته، ومهاراته، رغم أنها قد يعتريها الخطأ.

ويعود الفضل للميل لاستخدام الأسماء لإنتاج أنشطة ذهنية، وكأن هناك سكانا دائمين من الذكريات، والسمات، والمعتقدات، والآراء فى عقل شخص، وهناك أيضا ميل للتفكير فى أن الذات ٢ لا تتكون إلا من مثل هذه الكيانات. لكن هذا يُنتَج فى

أنشطة مشتركة للناس، وبالتحديد مؤشرات زمنية لتدفق النشاط الذى يُسجَّل فى سيرة ذاتية: "فى الزمن T1 عبَّرْتُ عن الرأى بأن X"، أو "الزمن T2 تذكَّرْتُ أن Y". ما أمتلكه دائما هو القوى والقدرات لإنتاج هذه الظواهر، وعنها يمكن القول بشكل صائب إن لها هذه الميول وتلك بالتتابع. تتدفق التتابعات الأنطولوجية المهمة بعمق من هذه الملاحظات البسيطة إلى حد ما. على سبيل المثال، لا نمتلك تقديرا ذاتيا لكننا ننتجه فى سياق الأنشطة اليومية وفى الإجابات على استبيانات السيكولوجيين. إنها خاصية للسرديات، وليس لأشخاص بهذا الشكل.

هل هذه الصفات بمثل هذه الأنواع المنطقية المختلفة خصائص P، الشخص؟ وهنا نأتى إلى رؤية ثاقبة أخرى مهمة للمقاربة الاستطرادية لعلم النفس: بالتحديد، إن كل هذه الصفات متعلقة بالعلاقات. رغم أننا ننسب قوة (مهارة، مقدرة، إلخ) إلى P، إلا إن تحديد القوة ينبغى أن يشمل ما تعمل عليه والآثار التى قد تنجم عن ممارستها. وخصائص تدفق أفعال شخص متعلقة بالعلاقات أيضا، لأن هذا الفعل يشمل أشياء مادية أخرى أو أناسا آخرين أو كليهما. وتحتاج النقطة الأخيرة إلى بعض التوضيح والتوصيف من حيث إننا ينبغى أن نميز بين تلك الأفعال التى تشمل آخرين حقيقيين من تلك التى لا تستدعى إلا آخرين متخيلين أو نظريين. على سبيل المثال، توجه المناجاة صراحة إلى الآخرين لكنها تأخذ شكل تتابعات من أفعال المحادثة، شكلا مشتقا من محادثات حقيقية لعب فيها المناجِى دورا ذات يوم. التمييز بين الخاص والعام لا يخطط بدقة للتمييز بين الفردى والجمعى.

القوى الشخصية وأسسها

ركزت المناقشة إلى حد بعيد على الطريقة التى تبين على ما يبدو أن الكيانات والخصائص الذهنية القوية، بفحص دقيق، خصائص لتيارات نشاط استطرادى، مشترك عادة، أو قصص، تستحضرها الأشكال النحوية التى تأخذها هذه التيارات فى هذه اللغة أو تلك. لكن هذا لا يشمل سيكولوجيا استطرادية مؤسسة فى سرد ورموز أخرى تستخدم **مهارات**. ماذا إذا مضينا أكثر، وسألنا عن كيفية تأسيس المهارات؟

يضم هذا نقطة أخرى عامة بشأن الخطاب والناس. حتى الآن لم نهتم إلا بخطابات ينتجها الناس لهذا الغرض اليومى أو ذاك. لكن ماذا عن خطابات عن الناس بوصفهم كائنات نشطة تخلق عالما رمزيّا له معنى؟ على سبيل المثال، **هذا الخطاب**. يبدو أنه صار جليا أن الأمر يتطلب إطارين أو نحوين استطراديين منفصلين جذريّا لإنصاف السلسلة الكاملة للشكل الإنسانى للحياة. فى إطار من هذا القبيل، إطار الشخص أو

الإطار P، توجد مفاهيم مثل "شخص"، "فعل"، "مسئولية"، "نية"، إلخ. وفى الإطار الآخر، الإطار الجزيئى molecular أو الإطار M، توجد مفاهيم مثل "ناقل عصبى"، "جهاز طرفى limbic system"، "قصبة tibia مكسورة"، "أكسجين"، إلخ. ولا يمكن ترسيخ كون هذين الإطارين أو النحوين منفصلين إلا بعمل شاق يتعلق بنقل **كلمات** من إطار إلى آخر، ورؤية إن كانت ارتباطاتها السيمنطيقية تتغير. على سبيل المثال، «جسم الإنسان» فى الإطار M مجموعة مبنية من الأعضاء، وجثة فى الإطار P. أو ترتبط [كلمة] "شخص" فى الإطار P بشكل متعدد بمجموعة متنوعة من المفاهيم الخلقية، وتشير فى الإطار M إلى آلة بيولوجية، أو كائن.

فى هذا القسم أفحص بعض هذه الطرق التى يترابط بها هذا النحو المزدوج للخطابات بشأن البشر وقواهم وقدراتهم. وأقدم تعليقا موجزا على استعارة الأداة/ الغاية بوصفها طريقة لتوليف النحوين فى إطار استطرادى أعلى.

كيف يمتلك شخص مهارة لا تُمَارَس؟ كيف يمكن لامرئ أن يعزو ميلا لشخص ما وهذا الميل لا يُعرَض؟ الإجابة على السؤالين عامة تماما بالنسبة للناس والحيوانات:

تتأسس القدرات والميول فى حالات دائمة نسبيا للكائن الذى تُعزَى إليه. وقد لانعرف دائما حقيقة الحالة المتعلقة بالأمر.

تتعدد فى العلوم الفيزيائية طبقات نمط الأسس؛ إنه سلسلة من المستويات تظهر المبدأ الذى تتأسس فيه خصائص البنى والكتل فى حالات المكوِّنات (كيانات مجهرية عادة وعلاقتها). نجد أحيانا فى الفيزياء أساسا كبيرا فيه يكون لكيانٍ قوةٌ أو ميلٌ معين لأنه كائن يرتبط بكيان أكبر. وهكذا طبقا لمبدأ ماك(٥)، القصور الذاتى لشىء مادى نتاج لعلاقته ببقية العالم. وهكذا يتأسس القصور الذاتى فى العالم عموما، وليس فى بنية الأجسام التى تعرضه. وتظهر مشاكل هذا المخطط حين نواصل فحص كل النكوص، ونصل إلى مستويات نعتقد أنها قد تكون جوهرية. لا يمكن تأسيس مستوى جوهرى فى مستوى جوهرى أعلى. وهكذا كيف تكون قوى الكيانات الجوهرية وميولها لنعلق عليها؟ ربما يكون علينا التسليم باستحالة التعليق عليها، تُوصَف فقط.

ومع ذلك، لا يصلح مبدأ المستويات نفسه بالنسبة للقوى والمهارات السيكولوجية. يتمتع الأشخاص بها، وهم أساسيون فى أنطولوجيا علم النفس. كان إثما رئيسيا «العلم» المعرفة أن يفترض أن القوى السيكولوجية ينبغى أن تؤسس فى مستويات سيكولوجية أساسية بشكل أكبر، مثل آليات المعرفة، أو الحالات المعرفية الدائمة، كما لو ينبغى أن تكون هناك حالات للذاكرة يتعذر ملاحظتها تُستدعَى للتعليق على قدرة شخص ما على التذكر. هذا الخطأ يمكن أن يصيب AI وأيضا النماذج الأقل تخصصا للتفسير

الموجودة فى التحليل النفسى. فكرة أن هناك حالات وعمليات معرفية غير ملحوظة خلف تدفقات النشاط المعرفى، الملحوظة والقابلة للملاحظة، أى ممارسة المرء لقواه المعرفية، تضيف بعدا أسطوريا لعلم النفس الذى ينتهك موس أوكام(٦) بشكل راديكالى بقدر ما انتهكته فرضية الأنا الديكارتية، بُشَارة مادة العقل.

الشَّرْطية ليست خاصية للقوة العلية، ليست إلا الشروط التى تتجلى فى ظلها. وهكذا، حتى فى «المستوى الأساسى»، إذا جاز التعبير، يمكن التعبير عن خاصية القوة على النحو التالى:

«A، الخاصية القوية، تجلب E، إذا توفر هذا الشرط وذاك.»

تلك طبيعتها. إنها خاصية عرَضية. يجب أن يكون الشرْط الوحيد بشأن نسبة شىء إلى شىء على علاقة بزمن تلك الخاصية والظروف التى تتجلى. إن الاعتقاد بأن الخاصية مجموعة احتمالات يجعلنا نفتقد قضية نسبة قوة علية ونخطئ التفسير.

لا أرى سببا لافتراض أى شىء غير مبدأ أن الشخص ليس له تعقيد سيكولوجى عرَضى فى مستوى الحس، رغم أنه، بالطبع، قد يتمتع بمجموعة مهارات وقدرات مختلفة. لكننى لا أرى سببا لافتراض أن أية مهارات تتأسس فى حالات سيكولوجية خفية. بالطبع، يبتكر الشخص شبكة من الحالات السيكولوجية شبه الدائمة والحالات سريعة الزوال فى سياق التفاعل مع الآخرين؛ لكنها نتاج لا مصدر. قوى الشخص لا تشبه قوى الكاشف الكيميائى، لنفسها بالمستويات الأكثر عمقا للبنية المجهرية للآخر، كيانات قوية أساسية أكثر. إنها أكثر شبها بالقوى عديمة الأساس للجسيمات الجوهرية أو المجالات الجوهرية. ليس للشخص، مفردا، تعقيد سيكولوجى بهذا المعنى.

كيف تتأسس القوى الشخصية إذن؟ تأمل اكتساب مهارة يدوية، القدرة على رسم لوحة دقيقة، على سبيل المثال. ينبغى تَعلُّمها، ونعرف جيدا أن فى ذلك التعليم تحدث تغيرات دائمة نسبيا فى دماغ المتعلِّم وجهازه العصبى، بشرط عدم تدميرهما نتيجة حادث أو نتيجة تقدم العمر، يحتفظ الشخص بالقدرة. وقد أدت هذه الخاصية المهمة لعلم النفس بوصفه علما، على ما أعتقد، إلى المشروع المستمر، والخطأ، لاختزال المفاهيم السيكولوجية فى مفاهيم العلوم الفيزيائية، وخاصة مفاهيم علم الأعصاب. لنرى عموما لماذا لا يلبى هذا ما نحتاج إليه لتفسير سمتين أخريين للطريقة التى ترتبط بها الأوصاف السيكولوجية لنشاط بالحالات والعمليات الجسدية لمن يؤدونها.

كان هناك عدد من الصور يُقترَح لإلقاء الضوء على العلاقة الأساسية بين القوى والقدرات السيكولوجية وحالات الجسم بوصفه جهازا ماديّا. الأحدث، وبطرق كثيرة، والأكثر قدرة على إلقاء الضوء هى تلك الطرق المتعلقة بالمهمة والأداة. فى العالم

الرمزى لحياة الإنسان مهام يجب القيام بها، ونحتاج إلى مهارة لتحقيقها، طبقا لمعايير محليَّة. للقيام بهذه الوظائف، سواء كانت مادية أو معرفية، نحتاج إلى أدوات مناسبة؛ أدوات أساسية فى أجسامنا، فى الأعضاء المناسبة. لنلتقط كوبا نحتاج أيادٍ، لنعد عدد الأكواب الممتلئة التى شربناها نحتاج أدمغة، ناهيك عن أجهزة الإدراك والمتطلبات الإضافية الأخرى. فى إطار المهمة يمكن أن نرى أن بعض الأعضاء الجسدية مكرسة بدرجة ما، ومكونة بدقة لأداء المهمة. لكنها قد تكون عامة، لها استخدامات متنوعة، ومن ثم يمكن أن تستخدم فى وظائف مختلفة، بينما منطقة بروكا Broca's area، على سبيل المثال، مكرسة بشكل ما للمهام اللغوية.

ثمة خاصية مذهلة لإطار الأداة/ المهمة وهى أن المعايير المعيارية تسوده، ويمكن أن نحدد بعضها، حيث إنها تشمل حماية الحالة وتكامل الأشخاص، خلقية. فيما يتعلق بإطار المهمة/ الأداة يمكن أن نسأل إن كان الدماغ يعمل جيدا، لكن يجب طرح هذا السؤال بشكل يرتبط بالمهمة التى نقوم بها. حالة دماغ جد يبدو وهو يقوم بكل المهام اليومية مصابا بحالة ألزهايمر، مجرد تدهور أو قصور فى استخدام الدماغ وسيلة للتذكر واستعادة الكلمات، بطريقة أخرى إنها مجرد حالة أخرى من حالات الدماغ. وبتعبير آخر، إن تجسيد كائن بشرى فى إطار فسيولوجى عصبى يمحو شخصيته، حيث إن معايير أداء الوظيفة بشكل صحيح، فى الإطار البيولوجى، ليس لها محتوى خلقى. إن الإطار البيولوجى الاجتماعى يعنى تشكل أفكار داروينية عن أن البشر غير مصانين خلقيا على الإطلاق. ومما هو جدير بالملاحظة أن قتل البشر من أجل الطعام عادة تتجسد فى إطار الأداة/ المهمة، وهكذا تستخدم معايير حفظ الشخص أو تبجيله. لم يأكل الماورى(٧) إلا أجساد من يعرفون أن لهم مكانة اجتماعية عظيمة أو برزوا فى معركة. كانت التغذية المستمدة من **ماناهم**(٨)، غذائهم الروحى، أكثر من المشتقة من بروتينهم. يبدو الأمر نفسه صحيحا بالنسبة أكلة لحوم البشر من الأزتك(٩). نقترب هنا من إحدى نسخ الأولوية المطلقة عند كانط، فارضين معالجة الناس دائما بوصفهم غايات لا بوصفهم وسائل على الإطلاق.

أطروحة أولوية التصنيف

نتيجة مباشرة للاعتبارات التى قدمناها سابقا توجد مشكلة بشأن معايير الهوية بالنسبة للأفراد بوصفهم عناصر لمجال كل أسلوب استطرادى. الأشخاص هم المفردات الأساسية لمجال النحو P، لكن ماذا يثبِّت هوية المفردات الأساسية وفرديتها فى مجال النحو M؟ هل يمكن التقاطها بهدف عرض سرديات عن البشر، بالإشارة تماما

إلى معايير بيولوجية؟ نرى أن مشروعا من هذا القبيل مستحيل. بالنظر بدقة إلى كيفية تكون مجال المفردات الأساسية بالنسبة لمجال النحو M، نجد رابطا آخر يربط النحوين المنفصلين فى وحدة ليست اختزالية.

كيف يحدد سيكولوجى الأعصاب جزءا من الجهاز العصبى يرتبط بدراسة فهم اللغة، على سبيل المثال؟ لا يمكن أن يحدث ذلك بفحص الجهاز العصبى وحده. عمليا هناك تقنيتان. يصاحب إصابات الدماغ غالبا فقدان أو تدهور فى بعض المهارات الذهنية أو الحركية. ومن ثم يبرهن على أن ذلك الجزء من الجهاز العصبى حين يكون غير مصاب لا بد أنه يلعب دورا فى مهارة الأداء. البرهان دقيق، لكن له فائدة تقريبية معينة. كيف يعمل؟ من الواضح أنه ينبغى أن تكون هناك معايير مستقلة للتعرف على مهارة الأداء ومتى تقل عما ينبغى. لتحديد أى جزء من الدماغ مسئول عن الكلام، ينبغى على المرء تحديد حالات للكلام، بشكل مستقل عن حالة الدماغ. ويتبع ذلك أن المعايير المستخدمة فى تحديد جزء من الدماغ بوصفه "وحدة القراءة"، ينبغى أن تجسد المعايير التى تلتقط بها القراءة بوصفها مهارة فى الأداء.

التحديد الإيجابى حديثا لمناطق فى الدماغ تنشط أثناء حدوث عملية معرفية أو حركية يمكن الكشف عنها بأشعات MRI أو PET من خلال قدرة هذه التقنيات على التقاط زيادة تدفق الدم أو نقصه فى منطقة. وطبقا لمبدأ أن زيادة نشاط الدماغ تتطلب مزيدا من تدفق الدم يمكن تحديد المناطق النشطة. وطبقا لمبدأ إضافى بأن نشاط الدماغ دليل على نشاط معرفى، يمكن استخدام النشاط المعرفى لتحديد الجزء المرتبط به من الدماغ. إنها سلسلة معقدة من التفسير، تعتمد على عدة مبادئ قد نبحث عن أسسها.

أسمى هذه المجموعة الكلية من المبادئ والاستدلالات أطروحة أولوية التصنيف Taxonomic priority thesis (TPT). رغم حقيقة أن الكثيرين من فلاسفة علم النفس يفضلون مقاربة من القمة إلى أسفل Top-Down، لم يدرس التطبيق التفصيلى لأطروحة أولوية التصنيف، بقدر ما أعرف، إلا حفنة من المؤلفين فى بداية سبعينيات القرن العشرين، على سبيل المثال، جنسن U.J. Jensen (١٩٧٢).

وحيث إنه لا توجد حالات ذهنية بهذا الشكل، توجد فقط صفات تدفق الفعلى الشخصى والجماعى، فإن هذه التصنيفات طرق لتقسيم العمليات. السؤال عن الارتباط. بينما ناقش أصحاب الاتجاه السائد بين فلاسفة علم النفس مسألة إن كان النشاط الذهنى يرتبط بحالات وعمليات فسيولوجية بوصفها نوعا أو علامة، لم يُدرس تأثير أطروحة أولوية التصنيف على هذه القضية. بالطبع نجد أن هناك دائما بعض عمليات الدماغ تتواصل متى كان هناك نشاط ذهنى، لكن يوجد أحيانا نشاط دماغى حين لا يكون

هناك ارتباط ذهنى. افترضْ أننا نبدأ بناء نظام تصنيفى لأنشطة الدماغ ومعمار الدماغ باستخدام أطروحة أولوية التصنيف. نطور نظاما لارتباطات النوع. إن البحث، سواء باستخدام طريقة إيجابية أو سلبية، يكشف، على ما نفترض، حالات تلتقط فيها المعايير السيكولوجية أكثر مما يلتقط أى نوع من نشاط الدماغ. الاكتشاف الحديث بأن الرجال والنساء يقرأون بأجزاء مختلفة من أدمغتهم مثال على ذلك. ينبغى علينا إذن أن نبنى تصنيفا فاصلا، إذا كنا نود الحفاظ على الارتباط بين نشاط الدماغ بوصفه أداة والقراءة، على سبيل المثال، بوصفها مهمة. لكن فسيولوجيا الأعصاب علم طبيعى، ونتوقع أن تكون هناك استجابة معيارية لهذه النتيجة: أى ابتكار فرضية للتأثير الموجود رغم أنه سمة عامة، غير قابلة للملاحظة، بالنسبة للعمليات العصبية المميزة سطحيا. وهكذا تُحفَظ ارتباطات النوع بابتكار نوع جديد يتعلق بفسيولوجيا الأعصاب. وبهذه الطريقة، تكشف أطروحة أولوية التصنيف ارتباطا ضروريا بين الأنواع فى كل أنطولوجيا. بقدر ما يمكن أن أرى، يكون AI بمثابة تعزيز لأطروحة أولوية التصنيف فقط بقدر ما تُفسِّر AI فرضيات العمليات المعرفية بوصفها تعبيرات شكلية عن بنية العمليات المعرفية فى العالم الرمزى.

ومع ذلك لنفترض أن البحث يكشف نوعا ثالثا أو رابعا من عمليات الدماغ، يرتبط فى بعض الحالات بالعملية الذاتية العامة. إلى أى مدى يمكن أن تبقى الاستجابة السابقة قابلة للتطبيق علميا؟ بقدر ما تستمر تقنية افتراض ما يتعذر ملاحظته مستساغة علميا فى السياق، وبقدر ما أرى، ليس هناك حد بديهى لامتداده غير المحدد، رغم أنه قد يؤدى إلى هرمية معقدة لما يتعذر ملاحظته. وهذا ليس مجهولا فى الكيمياء والفيزياء.

ومع ذلك، إذا انهارت أطروحة بسيطة عن أولوية التصنيف مع نمو أنواع سيكولوجية، بمثابة معايير لأنواع فسيولوجيا الأعصاب بتلك الطريقة التى تلتقط أكثر من نوع سيكولوجى (وهكذا ترتبط تصنيفيا مع النوع الفسيولوجى ذاته)، فهل يمكن تطبيق الاستراتيجية نفسها؟ بالتأكيد يمكن، باقتراح فرضيات بشأن اختلافات يتعذر ملاحظتها بين الظروف التى يلتقط فيها النوع الفسيولوجى ذاته بمعايير مستنبطة من أنواع سيكولوجية مختلفة. وطبقا للنمط المعتاد فى البحث فى العلوم الطبيعية، يمكن وضع برنامج لمحاولات تحديد المتغيرات الخفية. (منطقيا لن يختلف الوضع عما نجده فى ميكانيكا الكم حين تأخذ جسيمات تبدو متماثلة، أو معدة بشكل مماثل فى ظروف تبدو متماثلة، مسارات مختلفة.)

ربما يؤدى النمو المستمر للاستثناءات بالنسبة لأطروحة أولوية التصنيف، والفشل المستمر فى العثور على المتغيرات الفسيولوجية الخفية التى قد تحل المشكلة، إلى حل جذرى أنطولوجى، إلى إحياء ثنائية ديكارت. وأعتقد أن هذا الطريق يمكن

أن يُقترَح بنمو الأنواع السيكولوجية المرتبطة بالنوع العصبى ذاته، إذا تم التخلى عن أطروحة أولوية التصنيف. وسيكون هذا ثمنا باهظا حقا، حيث إن كل برنامج أبحاث فسيولوجيا الأعصاب يعتمد على أطروحة أولوية التقسيم. أى أن أنطولوجيا العمليات الرمزية تتم مطابقتها بالأدوات التى يؤديها الناس بها.

الملخص

من الواضح أن علم النفس علم هجين بشكل فريد، مشيد بطريقة فريدة. تتكون أسسه الميتافيزيقية من إطارين متميزين لكنهما ليسا مستقلين. فى الإطار **الرمزى** يبدو البشر أشخاصا، المفردات الأساسية فى ذلك الإطار، يبتكرون بشكل مشترك أفعالا تكتسب خصائص سيكولوجية، مثل الذاكرة، والمعتقد، وبنى السيرة الذاتية. فى الإطار **الجزيئى** يبدو البشر كائنات. يرتبط الإطاران ارتباطا وثيقا، ليس فقط بأولوية الرمزى فى تثبيت المخططات التصنيفية للاستخدام فى الجزيئى، لكن بشكل أكثر أهمية، حيث يفسر الأولويات التصنيفية بارتباط بين المهمة والأداة.

للعودة إلى قضية طبيعة الأشخاص: من دون أطروحة أولوية التصنيف والإطار التصورى للمهمة/ الأداة، يمكن أن تنهار مادية الأشخاص، أى التجسيد الذى يعتمد عليه فى النهاية معنى الهوية الشخصية (الذات ١). قد يكون الأشخاص بوصفهم المحور المشترك الذى يرتبط به العالمان الرمزى والمادى، نوعا مختلفا تماما.

يتحدث الناس ويكتبون ويحكون قصصا عن الآخرين وعن أنفسهم. وهناك أجناس أدبية كثيرة لقصص الناس. من النظرة الأولى، يبدو أن هناك مجموعتين من الأعراف الاستطرادية أو النحو لحكى قصص الناس تتخطى كل منهما الأخرى. المحاولات العنيفة للقيام بمهمة حكى مثل هذه القصص بذلها المتحمسون للنحو M (على سبيل المثال، بقصص المادية الإقصائية)؛ وقد قوبلت هذه المحاولات بمحاولات عنيفة بشكل مساوٍ قام بها متحمسون للنحو P (على سبيل المثال، بقصص ما بعد الحداثة). وقد حاولتُ أن أوضح أننا لا يمكن أن نستغنى عن أى منهما. الاثنتان مطلوبتان لتحقيق الشكل الإنسانى للحياة. يسود نحو فى مسرح العمليات، ويسود الآخر فى محادثات السامارين Samaritans. ويبقى أن هناك طرقا متنوعة ترتبط فيها هذه الأجناس السردية المتباينة وتتكامل فى توليف أعلى، دون إقصاء أى منهما.

الهوامش:

(١) P اختصار شخص person (ش)، S اختصار ذات self، وسوف أستخدم فيما تبقى من ترجمة الفصل الحروف الإنجليزية، لأسباب تتعلق بصعوبة استخدام الاختصارات العربية فى مثل هذا السياق. (المترجم)

(٢) الأنا الديكارتية Cartesian ego: الذات كما يقدمها ديكارت: مدركة فقط لأفكارها وقادرة على الوجود، محررة من الجسد، لا تشغل حيزا ولا يحيط بها الآخرون. إنها الذات الخالصة. (المترجم)

(٣) كارلوس كاستانيدا Castaneda (١٩٢٥-١٩٩٨): أنثروبولوجى وكاتب أمريكى. (المترجم)

(٤) مس بيتشامب Beauchamp وإيف وايت White: حالتان تمثلان اضطراب تعدد الشخصية. (المترجم)

(٥) مبدأ ماك Mach's principle: فيزياء نظرية، خاصة فى مناقشة نظريات الجاذبية، وهو اسم وضعه أينشتاين. وإرنست ماك، فيزيائى وفيلسوف. (المترجم)

(٦) موس أوكام Ockham's Razor: قاعدة تنص على أنه لا ينبغى مضاعفة الكيانات بلا داع. (المترجم).

(٧) الماورى Maori: من الشعوب النيوزلندية الأصلية. (المترجم)

(٨) مانا mana: قوة عليا، عند الماورى، تكمن فى شخص أو فى شىء مقدس. (المترجم)

(٩) الأزتك Aztec: من الشعوب الأصلية فى المكسيك. (المترجم)

المراجع:

Anderson, J. A., & Schoenig, G. T. (1996). The nature of the individual in communication research. In D. Grodin & T. R. Lindhof (Eds), *Constructing the self in a mediating world.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures.* New York: Basic Books.

Harré, R. (1998). *The singular self: An introduction to the psychology of personhood.* London & Thousand Oaks, CA: Sage.

Jensen, U. J. (1972). Conceptual phenomenalism. *The Monist, 56*, 250–275.

Kohut, H. (1977). *The analysis of self.* New York: International Universities Press.

Mühlhäusler, P., & Harré, R. (1990). *Pronouns and people: The linguistic construction of social and personal identity.* Oxford: Blackwell.